أزمة مالية ...

قصة جديدة

بقلم فارس زرزور

لم اكن في ذلك الحين فقيراً جداً كما انا الآن . الا ان ثمن بطاقة السينما كان يؤذيني على كل حال. او بمعنى اصح كان يؤذي جيبي. ولا اكون مخطئاً اذا قلت بان جيبي اصبح جزءاً مني لا يتجزأ بعد ان جمعتنا معاً محن واحدة هي البؤس والآمال الضائعة والفراغ. ولا شك ان هذه المحنة الاخيرة كانت اسوأهن على الاطلاق . وقد كنت في ذلك الحين اجرؤ على التفكير بكثير من الاشياء بل بشراء بعضها احياناً . فقد كنت افكر بالغرف الدافئة وبمحتويات الواجهات الزجاجية وبالسيارات وبالنساء ايضاً .. ومن البديهي ان تفكيري في هذا الصنف الاخير كان جرأة ليس لها حد . غير ان ما كنت استطيع شراءه من هذه البضائع جميعاً هي السيكارات والجرائد واقداح قزمة من عرق مجهول الهوية . اما الذهاب الى السينما فكان يحتاج الى شجاعة فائقة .

والآن وفي هذه اللحظة بالذات فأني اربت على كتف جيبي فاسمع صدى فراغه كصدى عويل في مقبرة ، والتفت بمنة ويسرة فأجد ان آخر سيكاره قد تبخرت من حياتي دون ان تترك رماداً . من اجل هذا اشرع في كتابة هذه القصة لاسلي نفسي واسلي الناس ، وربما لاحزنهم ايضاً . وخاصة من يشعر قلبه منهم بذلك الفراغ المخيف الذي هو ارهب من العمل القاتل واشد قسوة من الاشغال الشاقة .

في ذلك اليوم ، فكرت جدياً بأن اذهب الى السينما ولم تكن هذه الفكرة حلماً من احلامي الكثيرة التي تتبدد قبل ان تلامسها الشمس ، بل كانت فكرة واقعية وعملية لأن جيبي كان يملك ثمن البطاقة .

كان الوقت مساء وكانت الشوارع مكتظة بالناس الذين يسيرون باتجاهات مختلفة. وكنت قد اعتدت ان اسلك الطرق الخالية لأنها تشعرني باني لست وحيداً في هذا العالم . ففضلاً عن اني اجد فيها نفسي كنت التقي في بعض الاحايين بشاب يسير متلصصاً بالحائط يشير بيديه ويحدث نفسه بصوت مسموع . غير اني في ذلك المساء ايقنت تمام اليقين انني مهما تجولت فلن اعثر على نتيجة ما ، باستثناء ان الجو كان جارح البرودة عجزت خيوط قميصي عن مكافحته . واحياناً عندما تسير الاقدام ببطء يسير الرأس بسرعة فاذا لم يجد شيئاً يفكر فيه خاف من شيء مجهول . وانا خفت في تلك اللحظة . خفت ان يفاجئني شخصان من وراء احدى الزوايا ويرديانني قتيلاً بالرصاص ثم يفرا الى مكان بعيد .

يا للسخف . ! من انا يا ترى . ! وعندما اقتنعت انني لا شيء تصورت رجلاً مسناً ينحني امامي .

— سيدي هذه البناية الكبيرة مات صاحبها اليوم واوصى بها لاول من يمر بهذا الشارع وانت الشخص الوحيد الذي تستحقها .

— حسناً ! هي لي حالاً وسريعاً ؟ غرفة دافئة وصندويشة نقانق ...

وملأت خياشيمي رائحة توابل ذكية فاستفاقت امعائي وارسلت صرخات مكتومة وامتلأ فمي بلعاب مائع .. وسئمت التجوال فقررت الذهاب الى السينما . لأن التدقيق في واجهات المخازن وفي وجوه الناس بصورة خاصة لا يبعث على غير المقت والكراهية والكدر . بل يزيدها اضعافاً مضاعفة في نفس من يشعر بها على الدوام .

ووقفت امام شباك التذاكر وانا ازن ثمن البطاقة بميزان شديد الحساسية يفتقر اليه البخلاء والصائغون على السواء . وقررت اخيراً ان اغامر لولا ان وقعت عيناي فوراً ودون ان اتلفت حوالي على احد الاشخاص الذين كنت اعرفهم في عهود الدراسة . وكان يتأبط ذراع سيدة فائقة الروعة او هذا ما خيله إليّ جهلي الشديد لهذا الجنس الغريب من الانسان . وكدت اتوارى عن انظارهما لولا ان امسكني بغتة وصافحني بحرارة مدهشة .

— مرحباً ايها الصديق .. كيف حالك .. ؟ زوجتي .. صديقي زكريا ..

ولو كان وحيداً لأجبته ببعض الكلمات ، غير ان قيافتي المخجلة وتلك السيدة جعلا لساني ينصهر بين فكي ، فلا ابدي اية حركة . فأستعنت برأسي ورددت تحيته بايماءة ذليلة محزنة . وكان صديقي كريماً وشريفاً بل ونبيلاً للغاية . انني لا اطلق عليه هذه الصفات جميعاً لانني لا املكها او لاني لا ادفع لها

ثمناً ، بل لانه فعلاً كان في غاية النبل ، فقـــد صافحني بحرارة واخلاص صافيين دون ان المح في عينيه انه تذكر عني شيئاً .

بل انني كلما تصورت انه لم يحاول ان يفكر بتلك الحادثة اشعر برأسي ينحني فأكاد اسجد له .. ان رفاقي جميعاً يذكرون اني سارق . وانا اذكر ذلك ايضاً . وانا لست سارقـاً بالمعنى المفهوم . اي انني لم اسرق ذلك الكتاب بل الكتاب هو الذي فعل ذلك .. تمهلوا قليلاً ايها الاعزاء ! ان الكتاب لايسرق .. غير ان هذا الكتاب بالذات سرق نفسه ، فقد جـاء الى درجي بطريقة عجيبة فاحتفظت به . هذا كل شيء ! وقد كان هـــذا الكتاب هو سبب طردي من المدرسة . اذ لم يشأ احـد من الاساتذة أو الطلاب ان يفهم بانني لست سارقاً وانما الكتاب هو الذي جاء الى درجي ، بطريقة خفية . حتى المدير نفسه .. المدير الذي هو سيد الجميع استدعاني اليه وصبّ علي جام احتقاره بالفاظ شديدة القسوة .

— استدع اباك بسرعة يا لص .

— ليس لي اب .

— اذن ابحث عن اب يعلمك الامانة .

هذا كل شيء ايها الاعزاء ! والآن اجدني بسببه اتيـه في هذه الدنيا دونما عمل ، غير اني اقسم لـكم بربي انني حتى الآن لم اسرق شيئاً على الاطلاق . إنما وجـدت الكتاب في درجي يبتسم لي بصوره الزاهية فاحتفظت به . أفهمونني بربـكم ماذا افعل غير ذلك ؟ هل اطرده ؟ ومن يدريني ان له صاحباً ؟ ان احداً لم يسأل عنه وحق السماوات . وفعلاً فان حاجتي اليه هي التي أقنعتني ولقنتني انه ما دام ليس له اهل وما دام جـاء الى درجك من تلقاء نفسه فلا بأس في ان تحتفظ به ، على شرط ان لا تريه احداً . هل تسمون هذه سرقة ايها الناس ؟ اذن اقنعوهم بربكم .. اقنعوا اولئك الذين لايفهمون !

آه لقد شططت . لقد ضللت الطريق . كان يجدر بي ان امسك ببوصلة كي اسير مباشرة الى الهدف كما يقول العسكريون والقصاصون ايضاً . تباً لك ايها القـلم هل انت جائع ايضاً ؟ حسناً .. وهذه السيدة التي تتأبط ذراع صديقي امرأة فتانة الصورة رائعة التمثال ، ولكنها تبدو كمن تخجل من جمالها فهي تبتسم ببراءة وتحمر وجنتاها وتطرق بالرأس .

— تشرفنا .

ايتها السيدة انظري إلي قليلا ، انا من يقـدم اليك وليس شخصاً آخر . ممن تخجلين يا سيدتي ؟ مني ؟ مني أنا ؟ انظري اذن .. انني لا استحق ذلك وانا خجول اكثر منك لأسباب اولها وآخرها انني شخص تافه . استودعك الله ايها الصديق . ومددت يدي دون ان اقول شيئاً .

فصاح بدهشة :

— الى اين ؟

— الى هنا .. الى هنا .

— ولكننا قطعنا ثلاث بطاقات .

والآن انا اجلس على كرسي مخملي الى جوار السيدة والى يسارها يجلس الزوج المجنون . لقد دفع لي ثمن البطاقـة . ايها الصديق : لقد اطلقت عليك جميع الصفات الحميدة قبـــل ان تدفع ثمني قرشاً واحداً ، اما الآن فقد اشتريتني ، اشتريتني على علاتي بثمن فادح . حدّث نفسك .. فكر .. ألست مخدوعاً هل نسيت ؟ انني سارق .. سارق !

واصطدمت قدم السيـــدة بقدمي فانكمشت على نفسي وتكورت ، تمنيت لو اذوب ، لو اضمحل ، لو اتشقق وأباد . كانت ثلاث اصابع من قدمها شبـــه العارية تبرز من رأس الحذاء . اصابع بيضاء طرية طيبـة . ان زاوية ما في رأسي بدأت تحرك اجنحتها ، زاوية مهملة ضئيلة ميتة ، ورغم ضجيج الزوايا الاخرى واصطخابها فرشت هذه الزاوية اجنحتها وبدأت تزحف كصوص خرج لتوّه من البيضة !

وتمنيت رغم ضآلتي ورخصي ان اعري قدميهـــا واقبلهما واضمهما الى صدري بعنف ، بعنف شديد ، وارتعشت وخفت ان تنظر الى وجهي ، فتقرأ ما افكر فيه . وهبت نسمة من الهواء فشعرت بالبرودة تلسع جبيني : لا شك انه يتحلب عرقاً انها افكار مخيفـة . ومال إليّ الزوج . آه ! ماذا سيحـدث ؟ همس بصوت مسموع :

— ماذا تعمل الآن ؟

— لا اعمل شيئاً

— انا معلم مدرسة .

وأرجع ظهره وأسنده الى الكرسي ، وفكّر قليلا بأسى ظاهر . لا شك انه نادم على دفع ثمن البطاقة !

وتحدث مع زوجته قليلا ثم صمت ، وهزت هي رأسهـــا ونظرت اليّ بلطف فسقطت عينـــاي وافكاري الى الارض واستقرت جميعها على قدميها الطيبتـــين كالفطائر . الفطائر ؟

يظهر انني جائع ! ومن سخافة الجائع انه تراود رأسه أطيب المآكل . لا بأس ، ماذا يخسر ما دام لا يدفع لها ثمناً ؟ لماذا يفكر بالاشياء الرخيصة ما دامت جميعها مفقودة على السواء ؟ فلأفكر اذن ! هذا الحذاء الابيض الناعم لا بد ان له رائحة ايضاً ! كانت يداي مشلولتين في حجري ، ساكنتين ميتتين ، ورأسي وحده يغلي كالمرجل . ان الجبناء والفقراء والحجولين يسيرون رملًا نحو الجنون لانهم يكبتون غرائزهم ويشغلون افكارهم ليلًا نهاراً على الدوام . ولكن ماذا لو كانت هذه السيدة تجربني ؟

والتفتت إليّ ..

— هل اضايقك ؟..

وابتسمت .

— لا ، أبداً .. بتاتاً ..

— اراك تتململ !

— لا ، ابداً ، ابداً ..

انه من الصعب جداً ، بل من المستحيل ان احتمل الجلوس لحظة واحدة اخرى . يجب ان انسحب ، ان اختفي من هذا العالم . ان هذه السيدة تقرأ افكاري وتحدث زوجها ايضاً بل ربما سمعاني اتحدث عن الاقدام العارية !

ها هو الرجل يستسلم الى تفكير عميق : انه يهيء محاضرة اخلاقية . سيحدثني الآن بل ربما سيصيح امام الناس كلهم . انظروا ايها السادة هذا الخائن الغادر . لقد ...

ومال على زوجته وأخذا يتحدثان : الآن يجب ان اهرب . ولكن كيف انهض ؟ سوف يرياني . ستقول لي بدهشة الى أين ؟ وسيبكي صوتها الحنون . وسوف تراني صفوف طويلة من الناس ؛ هذه الاعين المصطفة ورائي كلها تتفرس بي . اني اشعر بها تزحف على ظهري ، انها عيون محرقة وهم جميعاً يعرفون من انا ! ستطفأ الانوار الآن . لقد قرع الجرس . لا يزالان يتساران . إنهما غارقان في حديث طويل ، لا شك انهما يتحدثان عني ، ان ذلك يحطمني ، يشل اعضائي . وسمعتها تقول له بصوت مسموع :

— وكيف نستطيع ان نستغني عن العشاء فضلًا عن اننا لم نتغدّ البارحة ؟

وأدنى وجهه من وجهها ، وقال لها شيئاً يظهر انه لم يكن مقنعاً لانها هزت رأسها سلباً ولم تجب . كنت استرق او اسرق نظرات طويلة ، دون ان احرك رأسي ، الى رأسيهما المتلاصقين . لقد تطور حديثهما ودخل في مرحلة جديدة من النقاش ، ووصلت الى أذني العبارة فاه بها هو بقوة :

— ماذا نفعل بها ؟

— هس ! سيسمع .

واخذ وجيب قلبي يطغى على كل شيء حتى خلت ان صدري يبرز ويتوارى تبعاً لخفقانه ، ودوى في أذنيّ طنين طويل هائل ، واعمتني حالتي الذاهلة عن كل ما حولي وكان رأسي مسمراً باتجاه واحد ، ولكن عيني لا تريان شيئاً ، وهذه الرؤوس المصطفة على أنساق مستقيمة لم تكن توحي إليّ بشيء على الاطلاق ، بل كان يخيل إليّ انه لا يوجد في هذا العالم كله غير رأسي وحده يتضاخم ببطء الى درجة يكاد معها ان يتمزق . اطفئت الانوار وبدأت الصور تتلاحق على الشاشة . ان هناك اموراً رهيبة وخطيرة يبحثانها بجد واهتمام ، انهما لا يتكلمان بالشاشة ، لماذا جاءا اذن ؟ ربما خلقت لهما مشاكل معقدة مستعصية الحل ! هل اضايقهما يا ترى ؟ وتحركت قليلًا تمهيداً لهرب نهائي فغيّرا من وضعيتهما ، لقد أحسا بانني اهرب وسمعته يقول كمن نفد صبره :

— انني لا استطيع ان أراك شاحبة الوجه ، لا استطيع ! أفهمت ؟! انها اشياء ضرورية ، صدقيني اننا لسنا بحاجة الى لحمة الغد .

— ماذا نأكل اذن ؟

— مجدرة ! مجدرة بالزيت مع مخلل !

— وهل نسيت وصايا الطبيب ؟

— اسمعي اذن : لا بد من الاستغناء عن حاجة بهذا الثمن ، ولكن ! هه .. ربما نستطيع توفيره من سهرة يوم الجمعة القادمة !

— لقد حسبنا لها ليرتين وعشرين قرشاً !

— سنذهب الى السينما فنوفر سبعين قرشاً !

— ولكننا وعدنا سعيد ونديده .

— انك تحيرينني ايتها المرأة ! لن اذهب معكم .

— لا يمكن ذلك !

يا للمسكينين انهما لا يلتفتان الى الشاشة .

— هل اضايقك ايها العزيز ؟

والتفت اليه :

— آه لا ، اخشى ان اكون انا !

– لا ، لا والله .

ومال على زوجته وحدثها باقتضاب مقـــدار دقيقتين . فتنحنحت ولم تجب واستدارا نحو الشاشة .

ومال عليّ مرة ثانية :

– كنا نبحث قضية سأحدثك عنها .

الحمد لله ليس لي دخل في الموضوع ، إذن .

والتفتت هي إليّ وتأملتني بنظرات اقـــل طراوة من سابقاتها . لا شك ان الظلام يوحي بهذه الجرأة ، سألتني بصوت خافت :

– ماذا حدث حتى الآن ؟

– هذا الجندي الصغير أترينه ؟ قطعت رجله في الحرب وعاد الى بيته فوجده مهدماً وهو الآن يبحث عن زوجته .

– ولماذا يطارد هذه الشحاذة ؟

– انه يظنها زوجته !

– مسكين .

والآن بعد ان انتهى كل شيء وأشرفت على نهاية القصة ، ماذا اقول ؟

صدقوني ايها الناس انني اتمنى لو ارمي بنفسي في النهر وفي مكان عميق .. عميق .. عمق الهوة التي أتردى فيها على رأسي ، غير انه يكفيني ان اقول بانني مخلوق صنع من حثالة الطين .. وانني أحسّ بذلك كلما تصورت تلك المرأة المسكينة التي عريت أقدامها ، تظل مفتوحة العينين في فراشها وسط الظلام ساعة كاملة حتى تحين ساعة النوم .

هل فهمتم ما هي القضية ايها الانسانيون ؟ ان صديقي أراد ان يعوض ثمن بطاقتي ، فلم يجد غير اطفاء النور كل يوم قبل النوم بساعة كاملة على الاقل .

دمشق **فارس زرزور**